# ٦ - الميسر والأزلام

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

العامل الدينى :

كان « هبل » أعظم صنم لقريش فى مكة ، وكان مكانه فى جوف الكعبة ، وفيه يقول ابن الكلبى [1] : « وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر ، على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب » . وهو الذى قال له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد :

أعل هبل !

— أى أعل دينك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الله أعلى وأجل ! !

عند هذا الصنم الجليل القدر لديهم كانت توضع « الأزلام » ، ويقوم الكهان أو السدنة بإجالتها وإفاضتها لمن يريد الاستقسام ، إعظاما للأمر الذى يبغونه ، فهم يختارون موضع القضاء فى أقدس مكان لهم ، وإعظاما للحكم الذى يرتضونه ، فإن الذى حكم به هو سادن الكعبة ، أو أحد كهانهم

فكانوا يذهبون إلى « هبل » ، ومعهم ( مائة درهم ) و ( جزور ) ، ويعطونها لصاحب القداح الذى يضرب بها [2] ، ثم يقربون صاحبهم الذى يريدون الحكم فى نسبه إن أرادوا ، ثم يقولون : « يا إلهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه ! » ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب ! فيجيل القداح ويفيضها ، فإن خرج ( منكم ) كان منهم وسيطا ، وإن خرج ( من غيركم ) كان حليفا ، وإن خرج ( ملصق ) كان على منزلته ، لا نسب له ولا حلف

وإن استشاروه فى أمر يقتضى ( نعم ) أو ( لا ) فخرج ( نعم ) عملوا به ، وإن خرج ( لا ) أخروا الأمر عاماً كاملا ثم أتوا مرة

(١) الأصنام ص ٢٨

(٢) قال أبو حيان فى تفسيره : « فالمائة للضارب بالقداح ، والجزور ينحر ويؤكل »

---

عاصفاً ، تجلى فيه غضب الشيخ الحليم وتحفز الطالب الطلعة . ولا بأس أن نوردهنا حديث ذلك اللقاء،وإن كنا نسبق بذلك ترتيب الحوادث قليلا ؛ فقد كان المازنى يومذاك فى آخر عهده بمدرسة المعلمين ، وكان يؤدى الامتحان النهائى للتخرج ، وكانت لجنة الامتحان الشفوى فى اللغة العربية برياسة الشيخ حمزة ومن أعضائها الشيخ عبد العزيز شاويش والأستاذ عاطف بركات . .

« فقال أحد إخوانى بعد خروجه من الامتحان أن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار . ولم نكن ندرس لا نحواً ولا صرفاً فى المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب . فأيقنا بالفشل وجاء دورى فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه فناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت . ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى « إعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها » إلى آخره ، فقال ضع الكتاب فوضعته . فسألنى عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التى يكون عليها الفعل « اعتدى » مثل «اعتديا» للماضى المثنى و « اعتديا » للأمر ، فسألنى لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سببا وقلت إنه لاسبب هناك سوى أن العرب نطقوا بها هكذا . فدهش لهذا الجواب وقال ولكن لهذا سببا . قلت إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفى ولا داعى للبحث عن سبب مختلق . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه ، وحدثت نفسى أنه خير لى وأكرم أن أسقط بحناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأيى وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش تدارك الأمر ، فقد نظر فى ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يامولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « إى نعم » وذهب للصلاة ونسينى فكان فى هذا نجاتى » .

للكلام بقية

محمد محمود حمدان

أخرى يستقسمون بالأزلام [٣]

بهذا العامل الديني ، وبهذا الشعور الروحي الوثني استقسم عبد المطلب بن هاشم مرتين :

١ — في حفر بئر زمزم [٤] ، حينما أمر في منامه عدة مرات بحفرها ، وقام ليقضي ما كتب عليه في منامه ، فحفر في البئر — ولم يكن له من الولد حينئذ إلا الحارث بن عبد المطلب — فلما تمادى به الحفر وجد فيما حفر غزالين من ذهب خالص ، ووجد أسيافا قلعية وأدراعا ، فقالت له قريش : يا عبد المطلب ، لنا معك في هذا شرك وحق !! قال : لا ، ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم ، نضرب عليها بالقداح . قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ، ولي قدحين ، ولكم قدحين ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا : أنصفت ! فجعل قدحين ( أصفرين ) للكعبة ، وقدحين (أسودين) لعبد المطلب ، وقدحين ( أبيضين ) لقريش [٥] ، ثم أعطوا تلك القداح لصاحب القداح التي يضرب بها عند « هبل » ، فضربها على الغزالين فخرج ( الأصفران ) فكانا من نصيب الكعبة ، ثم ضربها أخرى على الأسياف والدروع فخرج ( الأسودان ) فكانا من نصيب عبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش لم يظفرا بشيء . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين من ذهب ، فأرضى بذلك نفسه وشعوره الديني العميق ، وحسم الخلاف بينه وبين قومه بما حكم به « هبل » ، وهو الذي لا يرد له قضاء !!

٢ — والمرة الثانية حينما نذر حين لقي من قريش مالقي عند حفر بئر زمزم واستخفافهم به لقلة ولده [٦] : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة !! فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني . ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على « هبل » في جوف الكعبة ، وكان منصوبا على بئر يجمع فيها ما يهدى إلى الكعبة . فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند « هبل » يدعو الله جاهدا ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على ( عبد الله ) وهو أعز ولده عليه ، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة [٧] ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها ، وكذلك قام بنوه ، فقالوا : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ! لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟!

وكان أن لجئوا إلى عرافة في « خيبر » يسألونها في ذلك ، فقالت : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت ، فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم !

فرجعوا إلى مكة ، وضربوا بالقداح بين عبد الله وبين عشر من الإبل ، فخرج القدح على ( عبد الله ) ! فزادوا عشرا وضربوا ، ثم زادوا عشرا وعشرا حتى بلغت مائة ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب . فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ! فضربوا ثلاث مرات توثيقا للأمر ، كل ذلك يخرج القدح على الإبل المائة . فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع

فهاتان الحادثتان تدلان على مقدار خضوع سادة العرب وأشرافها لحكم الأزلام ، ومبلغ اضطرارهم وتقديسهم لأحكامها

## تقديس الأزلام

وبلغ من تقديسهم للأزلام أنهم جعلوا في البيت الحرام صورة لإبراهيم عليه السلام ، وفي يده الأزلام التي يستقسم بها [٨]

(٣) السيرة ٩٧ — ٩٨ جوتنجن

(٤) السيرة ٩١ — ٩٧

(٥) هذا دليل آخر على أن أزلام الاستقسام لم تكن ذات نمط واحد ، أو نظام واحد

(٦) سبق القول أنه لم يكن له من ولده عند حفر زمزم إلا ولد واحد ، هو الحارث

(٧) إساف ونائلة : صنمان كان بمكة ، جعل أحدهما بلصق البيت والآخر بزمزم ، وكان ينحر عندهما ، وكانت الجاهلية تتمسح بهما . ياقوت

(٨) انظر السيرة ٨٢١

وفى حديث فتح مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت فرأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام[٩]

قال ابن هشام [١٠] : « وحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ ما شأن إبراهيم والأزلام ؟! ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست »

وفى مسند أحمد [١١] برقم ٣٠٩٣ عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم الله ! أما والله لقد علموا ما اقتسما بها قط »

### الأزلام فى التاريخ الدينى القديم

نص القرآن الكريم على حادثين اثنين كان للأزلام فيهما نصيب ، ولكنها لم تكن على ما كانت عليه عند العرب من التقديس الوثنى ، بل كانت بمثابة القرعة التى سيأتى الكلام عليها :

الحادث الأول أشار إليه الكتاب الكريم فى قوله تعالى : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » آل عمران ٤٤

والحادث الثانى أشار إليه قصة يونس : « فساهم فكان من المدحضين » . الصافات ١٤١

١ — أما الأول فهو ما كان من أمر زكرياء عليه السلام . روى أن حنة حين ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون — وهم فى بيت القدس كالحجبة فى الكعبة — فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ! فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها . قالوا : لا حتى نقترع عليها . فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر الأردن فألقوا فيه ( أقلامهم ) ، فارتفع قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها

واختلف المفسرون فى هذه الأقلام فقال بعضهم : هى أقلام الكتابة كانوا يكتبون بها التوراة ، فاختاروها للقرعة تبركا بها وقال بعضهم : الأقلام هنا الأزلام ، وهى القداح

وقال أبو مسلم : كانت الأمم يكتبون أسماءهم على سهام عند المنازعة ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر . وهو شبيه بأمر القداح التى يتقاسم بها الجزور[١٢]

وقال ابن قتيبة[١٣] : وكانوا تشاحوا فى كفالتها ، فضربوا بالقداح ، وهى الأقلام ، فخرج قدح زكريا فكفلها

٢ — وأما الثانى فما كان من أمر السفينة التى ركب فيها يونس عليه السلام فرارا من قومه ، حين ذهب مغاضبا ، فلما أبعدت السفينة فى البحر ويونس فيها ركدت ، فقال أهلها : إن فيها لمن يحبس الله السفينة بسببه فلنقترع . فأخذوا لكل منهم سهما على أن من طفا سهمه فهو ، ومن غرق سهمه فليس إياه . فطفا سهم يونس ، ففعلوا ذلك ثلاثا تقع القرعة عليه ، فأجمعوا على أن يطرحوه ، فألقى بنفسه فالتقمه الحوت[١٤]

وقصة يونس هذه — وتسمية كتب العهد القديم يونان — مذكورة بتفصيل فى سفر « يونان » ، جاء فى الإصحاح الأول :

« فقام يونان ليهرب إلى « ترشيش » من وجه الرب ، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش ، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب . فأرسل الرب ريحا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم فى البحر حتى كادت السفينة تتكسر . فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه وطرحوا الأمتعة التى فى السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم . وأما يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوما ثقيلا. فجاء إليه رئيس النوتية وقال له : مالك نائما . قم اصرخ إلى إلهك

(٩) اللسان ( قسم )
(١٠) السيرة ٨٢١ — ٨٢٢
(١١) الجزء الخامس بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر . وانظر أيضا رقم ٣٤٥٥ من المسند

(١٢) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٤٢ ، ٤٥٨ — ٤٥٩) وكذا تفسير الزمخشرى ( ١ : ١٤٣ )
(١٣) الميسر والقداح ٣٨
(١٤) تفسير أبى حيان ( ٢ : ٤٥٩ )

عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك . وقال بعضهم لبعض : هلم نلقي قرعا لنعرف بسبب من هـذه البلية . فألقوا قرعا فوقعت القرعة على يونان . فقالوا له : أخبرنا بسبب من هـذه المصيبة علينـا . ما هو عملك ومن أين أتيت ؟ ما هي أرضك ومن أى شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبرانى وأنا خائف من الرب إله السماء الذى صنع البر والبحر . نخاف الرجال خوفا عظيما وقالوا له : ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنـا . لأن البحر كان يزداد اضطرابا . فقال لهم : خـذونى واطرحونى فى البحر فيسكن البحر عنكم لأننى عالم أنه بسببى هـذا النواء العظيم عليـكم » .. « ثم أخذوا يونان وطرحوه فى البحر فوقف البحر عن هيجانه ، نخاف الرجال من الرب خوفا عظيما وذبحوا ذبيحة للرب ونذروا نذورا : وأما الرب فأعد حوتا عظيما ليبتلع يونان ، فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال »

وبعد أن يسرد سفر ( يونان ) صلوات ( يونان ) فى جوف الحوت يقول : « وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر »

فهاتان القصتان على ما فيهما من حمل المفسرين الأقلام فيهما والمساهمة على معنى أزلام الجاهلية ، لا ريب أن ما فيهما من صنيع هو بعيد كل البعد عن صنيع أهل الجاهلية فيما كانوا يجعلون لتلك الأزلام من قداسة ومن شرائط دينية وتقاليد خاصة ، وإنما هاتان ضرب من ( القرعة ) لا يزيدان عن تلك شـيئا ولا ينقصان شيئا

والنص الذى سقته من سـفر يونان مؤيدا أنها قرعة بعيدة عن الاستقسام الوثنى

### التمرد على الأزلام

وقد بدت ظاهرة من ظواهر التمرد على تلك الأحكام الدينية فيما رواها ابن الـكلبى (١٥) من أن امرأ القيس بن حجر أقبل يريد الغارة على بنى أسد ، فمر بذى الخلصة — وكان صنما بتبالة (١٦) — وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الآمر ، والناهى ، والمتربص . فاستقسم عنده ثلاث مرات نخرج (الناهى) فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال : « عضضت بـ ... أبيك ! لو كان أبوك قتل ما عوقتنى ! »

ثم قال فى ذلك :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا … مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ثم غزا بنى أسد فظفر بهم

قال ابن الـكلبى : « فلم يستقسم عنـده بشئ حتى جاء الله بالإسلام ، فكان امرؤ القيس أول من أخفره »

(المبحث بقية) عبد السلام محمد هارون

(١٥) فى كتاب الأصنام ص ٤٧ وعنه ياقوت فى معجم البلدان (الخلصة)

(١٦) تبالة : واد مجاور لوادى بيشة ، من أرض تهامة فى طريق اليمن وفى صحيح الأخبار للعلامة محمد بن بليهد ( ١ : ٦٨ ) : وتبالة باقية بهـذا الاسم إلى يومنا هـذا على شـمالى بيشة الشمالى » . وقال ابن حبيب فى المحبر ٣١٧ عند الـكلام على ذى الخلصـة : « وهو اليوم بيت قصار فيما أخبرت » . وقال المبرد فيما نقله عنه ياقوت : « موضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات »